

وشيء آخر يا ابنتي وددت لو قَدَّرْتِه وفكرت فيه؛ فقد كان هؤلاء الملوك يستطيعون أن يرجعوا عن حربك كما أقدموا عليها دون أن يسفروا إليك أو يعرضوا عليك صلحاً، ينتظرون أن تدور الأيام لهم بعد أن دارت عليهم؛ ولكنهم قبلوا الأمر الواقع ومضوا على سنة الملوك من قبلهم، فاعترفوا لك بالغلب وألقوا إليك السلم وطلبوا منك الصلح، فاحذري وقد لقيتهم هذا اللقاء ورددت مجاملتهم هذا الرد، أن يعودوا أدراجهم، وأن يطاولوا ويماطلوا وينتظروا معاودة الحظ لهم، وأن يبقى الأمر بينك وبينهم مختلطاً مضطرباً، لا هو بالسلم التي تُستأنف فيها الصلات بين الأمم والشعوب، ولا هو بالحرب التي يكون فيها الغالب والمغلوب، وما أظن يا ابنتي أنك تريدين أن تغيري على هؤلاء الملوك في ممالكهم، ولا أن تغزو جيوشك كل واحد منهم في عقر داره؛ فقوتك لا تبلغ هذا، وحبك للرعية يأبى عليك أن تعرضيها لحرب الهجوم بعد أن عصمتها من حرب الدفاع. وإذا فسيبقى الأمر معلقاً بينك وبين أعدائك حتى يستأنفوا الحرب أو تزهدي أنت هذه الحال المعلقة فتطلبي إليهم السلم، ويوشك كل واحد منهم أن يرد عليك سفراء كما رددت عليه سفراءه. وبعد؛ فإن الملوك لا يعاملون أنفسهم هذه المعاملة، ولا يطلب أحدهم إلى الآخر أن يذل ويستكين ويسعى طالباً للصلح ومعطياً بيده. كان ذلك يجري في الزمن القديم قبل أن تتحضر الجن وتقرر القواعد التي تنظم العلاقات بين الأمم والشعوب وبين الدول والملوك، فأما الآن فإن نظام السفراء لم يخترع عبثاً، وإنما أنشئ لمثل هذا الأمر الذي أنتم فيه.»

قالت الملكة باسمه: «أحبب إلي بكل ما تأمرني به يا أبت وبكل ما تشير به علي؛ فأنت الملك وستظل الملك دائماً، وإنما أنا رعية لك، وإذا نهضت بالأمر فإنما أنهض به؛ لأن طاعتك علي واجب، ولأن شبابي وقاء لشيخوختك، وكل ما قلته لي حق لا غموض فيه ولا غبار عليه لولا أنني ضامنة أن هؤلاء الملوك الذين أثاروا حربهم ظالمين لن يستطيعوا أن يعودوا إلى ممالكهم حتى آذن لهم بهذه العودة؛ فإن السر الذي أتاح لي أن أحول بينهم وبين الفوز يتيح لي أن أحول بينهم وبين الإياب إلى أوطانهم، فهم معلقون بأمرى بين النصر والهزيمة: لن يُنصروا لأنني لا أريد لهم أن ينصروا، ولن يرجعوا لأنني أباي عليهم أن يرجعوا.»

قال طهمان بن زهمان: «ويحك يا ابنتي! أتستطيعين ذلك؟»

قالت: «كما استطعت أن أقفهم موقفهم هذا لا يتقدمون خطوة.»

قال طهمان بن زهمان: «إن كل أمرك غير مفهوم يا ابنتي، ويظهر أنك لا تريدين أن أفهم منه شيئاً.»